مجلة جامعة دمشق للدراسات التاريخية
مجلد 148 - عدد 3 (2024): 111-132

Damascus University Journal of Historical Studies sciences
Vol 148-No.3 (2024):111-132

الآثار السياسية والاقتصادية الناجمة عن حرب الوراثة في العصر السلجوقي (455-552هـ/1063-1157م)

سلوى رشيد إسكندر[1]، اكتمال كاسر إسماعيل[2]

[1] طالبة دكتوراه، قسم التاريخ، تاريخ العرب والإسلام، كلية الآداب، جامعة دمشق.
salwaiskander@damascusuniversity.edu.sy

[2] أستاذ دكتور، قسم التاريخ، تاريخ العرب والإسلام، كلية الآداب، جامعة دمشق.
ektimalismail@damascusuniversity.edu.sy

الملخّص:

تعود الأسرة السلجوقية في نسبها إلى سلجوق بن دقاق، وهو جدهم الأعلى، وتعد الدولة السلجوقية من الدول الكبرى في العصور الوسطى التي ظهرت في العصر العباسي وكان لها دور كبير في تغيير الخارطة الجغرافية للمنطقة وإنقاذ الدولة العباسية بعد أن كانت قد فقدت معظم نفوذها في المنطقة خصوصاً عندما كانت الخلافة العباسية تعترف بالحكم البويهي حكماً شرعياً.

ولاحقاً دخل السلاجقة في صراع طويل مع الدولة الغزنوية، انتهى بانتصارهم وبدأوا بالتمدد غرباً حتى قضوا على البويهيين ثم مدوا سلطانهم إلى بلاد الشام والحجاز والأناضول وخاضوا حروباً كثيرة مع البيزنطيين والصليبيين، لكن بعد ذلك أخذت دولة السلاجقة بالانقسام والضعف، حيث شهدت صراعاً على العرش بين أفراد البيت السلجوقي، ورافق هذا الصراع صراع آخر مع

الخليفة العباسي، ذاقت فيه بغداد إهمالاً شديداً وهجرها أحيانا الخليفة مع الناس ريثما تنتهي الحروب فيما بينهم، مما أدى إلى اضطراب في الحياة السياسية ونظمها، الذي انعكس بدوره سلباً على الحياة الاقتصادية في كل جوانبها، إذ أهملت الصناعة، ولم يهتم السلاطين السلاجقة إلا بالصناعات التي تخدم المجال العسكري، كما ضعفت التجارة بسبب ما تعرضت له الطرق التجارية من تخريب وعدم استقرار وفقدان الأمن، أما في المجال الزراعي فقد أهملت الأراضي الزراعية وهجرها أصحابها، فقلّت الأقوات وغلت الأسعار.

الكلمات المفتاحية: الأسرة السلجوقية، الدولة العباسية، الغزنويين، البويهيين، بلاد الشام، الأناضول، البيزنطيين.

تاريخ الإيداع: 30/ 2023/08
تاريخ القبول: 2024/01/27

حقوق النشر: جامعة دمشق- سورية، يحتفظ المؤلفون بحقوق النشر بموجب الترخيص
CC BY-NC-SA 04

Political and economical effects of the wars of succession in the Seljuk era (455-552AH\ 1063-1157AD)

Salwa Rashid iskander[1], Iktimal kaser ismail[2]
1 PhD student, History of Arabs and Islam , Faculty of Arts and Humanities, Damascus University.
salwaiskander@damascusuniversity.edu.sy
2 Professor, History of Arabs and Islam, Faculty of Arts and Humanities, Damascus University.
ektimalismail@damascusuniversity.edu.sy

Abstract:

The Seljuk family's lineage traces back to Seljuk bin Daqqaq, who is their supreme grandfather. The family emerged as one of the most prominent Islamic powers during the Abbasid era, playing a major role in reshaping the region's geopolitical landscape, and saving the Abbasid state, which had lost much of its influence in the region, particularly when the state granted legitimacy to Buyid rule.

Subsequently, the Seljuks engaged in a long conflict with the Ghaznavids, culminating in their decisive victory, where the thorn of Ghaznavids was broken. With newfound momentum, they embarked on a westward expansion, eliminating the Buyids and extending their authority to the Levant, Hijaz, and Anatolia. This expansion led to numerous wars against the Byzantines and the

Crusaders. However, the Seljuk state succumbed to division and dispersion, as a power struggle for the throne erupted among the members of Seljuk family. Adding to the chaos, the Seljuks became embroiled in a conflict with the Abbasid Caliphate, leading to the occasional abandonment of Baghdad by the Caliph and the people, and disorders in the political life, which affected all aspects of economy, as the Seljuks neglected all industries except those essential for military. Also, the trade has been damaged due to the sabotaging of trading routes and the lack of security. Agricultural production suffered as well, as lands were neglected and abandoned by their owners. This led to a decrease in agricultural output and a subsequent rise in food prices.

Keywords: Seljuk family, Abbasid State, Ghaznavids, Buyids, Levant, Anatolia, Byzantines.

Received:30 /08/2023
Accepted: 27/01/2024

Copyright: Damascus University- Syria, The authors retain the copyright under a
CC BY- NC-SA

- **المقدمة:**

لم يكن هناك نظام معين متفق عليه لاعتلاء العرش السلجوقي، إذ كان من يتولى السلطنة أقوى أفراد الأسرة، وأكثرهم نفوذاً. ولم تكن مسألة الأخ الأكبر في رسوم تعيين السلطان السلجوقي هي الفيصل، بل جعل السلاجقة الشجاعة والقوة تسبق السن، والشهامة والبطولة هي الأساس الذي يقوم عليه تعيين القائد.

وفي سنة 429هـ/1037م جلس طغرلبك على عرش السلطان الغزنوي مسعود، وأعلن نفسه سلطاناً على السلاجقة. وفي الحقيقة، لم يعترض أحد من السلاجقة على ذلك، بل تم الموافقة عليه بالإجماع، على الرغم من صغر سن طغرلبك عن أخيه جغرى بك داود، إلا أن الاختيار وقع عليه لما تميز به من الشجاعة النادرة وقوة الشخصية عن بقية أفراد البيت السلجوقي.

على هذا النحو اتفق أفراد الأسرة السلجوقية على تنصيب طغرلبك وتعهدوا بالطاعة والولاء له، وبذلك تمتع السلاجقة بالقوة نتيجة لوحدة البيت السلجوقي، ولكن طريقة اختيار السلطان طغرلبك اختلفت عن طريقة اختيار من جاء بعده من سلاطين السلاجقة، فالسلطان ألب أرسلان وصل إلى العرش بناء على رغبته وبدعم ومساندة من وزيره نظام الملك الطوسي، أما اختيار ابنه ملكشاه سلطاناً فقد تم بسهولة أكثر، حيث تسلم السلطنة بناء على وصية والده السلطان ألب أرسلان بولاية العهد من بعده.

على هذا النحو، ورث السلاجقة سلطانهم وعرشهم لأول مرة، وأصبحت مسألة توريث العرش عادة وسنة لدى السلاجقة مما أدى إلى حروب الوراثة وانفجار الصراع بين أفراد البيت السلجوقي للاستحواذ على السلطنة، وفي النهاية إلى سريان الضعف في كيان الدولة السلجوقية وتفككها وخاصة بعد وفاة السلطان ملكشاه سنة 485هـ/1092م، حيث تجزأت الدولة وانقسمت إلى عدة دول مستقلة، سميت كل واحدة باسم المنطقة التي سيطرت عليها، وهذه الدول هي دولة سلاجقة إيران والعراق، دولة سلاجقة كرمان، دولة سلاجقة الروم، دولة سلاجقة بلاد الشام.

لقد تركت حروب الوراثة بين أفراد البيت السلجوقي أثراً واضحاً على مجريات الحياة السياسية ونظمها من جهة وعلى الحياة الاقتصادية من جهة أخرى.

- **إشكالية البحث وأهميته:**

تعد دراسة أثر أي حرب على مجتمع دراسة مهمة، ومميزة، لأنها تظهر مدى تأثر تلك الشعوب التي عاصرت تلك الأحداث على كافة الأصعدة وخاصة سياسيا واقتصاديا، وكثيراً ما تؤدي الحروب إلى طحن الناس وتفقيرهم، وتجويعهم، وقتل أطفالهم وأزواجهم ونسائهم، فكيف إذا كانت حربا بين أفراد الأسرة الحاكمة من أجل الوصول إلى السلطة، ومن هنا جاءت أهمية دراسة حرب الوراثة وأثرها على لدولة السلاجقة سياسياً واقتصادياً.

ويجيب البحث عن تساؤلات عدة هل كان للسلاجقة نظام معين لتولي منصب السلطنة وهل كان للوزراء دور في مسألة من سيتولى منصب السلطنة وهل أسهموا في اخماد حرب الوراثة أم كانوا يميلون لتحقيق مصالحهم الخاصة وما هو تأثير حرب الوراثة على قوة ووحدة الدولة السلجوقية وماذا كان موقف الخلافة العباسية من هذه الحرب فضلا عن تبيان انعكاس حرب الوراثة على الحياة الاقتصادية للدولة في مجال الزراعة والتجارة والصناعة.

- **أهداف البحث:**

يهدف البحث إلى القاء الضوء على حروب الوراثة في السلطنة السلجوقية وخاصة بعد وفاة السلطان ملكشاه، وتبيان دور الوزراء والخليفة العباسي في توسيع الهوة بين أفراد البيت السلجوقي بهدف تحقيق مصالحهم الشخصية، ويهدف أيضاً إلى دراسة آثار ومنعكسات تلك الحروب والنزاعات على الحياة السياسية والاقتصادية في السلطنة السلجوقية.

- **منهج البحث:**

اعتمد البحث المنهج التاريخي القائم على جمع المعلومات من بطون المصادر التاريخية والمراجع، ومن ثم استقراء تلك المعلومات وتحليلها تحليلاً علمياً وموضوعياً بعيداً عن الأهواء والميول الشخصية، ومن ثم استخدامها بما يخدم الموضوع.

- **أولاً: الآثار السياسية الناجمة عن حرب الوراثة في العصر السلجوقي:**

كانت قوة الدولة السلجوقية أو ضعفها رهن بقدرة الشخص المتسلم لها في كيفية التعامل مع المشاكل والاضطرابات والأطماع التي يشهدها عصره، كما أنها كانت رهن باعتراف الخليفة العباسي بسلطته، لما لهذا الاعتراف من أثر في اكتمال الكيان الشرعي للدولة السلجوقية أمام المسلمين الخاضعين لسلطتهم في المشرق.

فبعد أن دخل السلاجقة العراق سنة 447هـ/ 1055م، تناوب على الحكم سلاطين أقوياء- أولهم طغرلبك وألب أرسلان وملكشاه، وآخرهم السلطان محمد بن ملكشاه، إلا أن وفاة الأخير خلّفت سلسلة من الصراعات بين السلاطين السلاجقة والأمراء للسيطرة على عرش السلطنة أولاً ومقدرات الخلافة ثانياً، فكان كل سلطان يريد أن يأخذ إذن الخليفة بالخطبة له دون سائر إخوته أو أبناء أخوته، وغيرهم لتحقيق أطماعه ورغباته الشخصية. (الجومرد، 1988م، 277).

ومع تلك الأطماع والانقسامات زادت حدة الصراع بين السلاجقة أنفسهم وزادت معها معاناة المسلمين بشكل عام، والخلفاء العباسيين بشكل خاص.

وقد زاد حدة الصراع تدخل أمراء الأطراف بهدف الحصول على المنافع والمكاسب، فلم تعد الخلافة العباسية قادرة على كبح جماحهم بعد أن فقدت قوتها، وهذا ما دفعهم إلى العصيان ومهاجمة بغداد أكثر من مرة. (كارلا آل كلاوسن، 2001م، 23).

وكان من أهم ثورات الأمراء ضد الخلافة ثورة البساسيري[1] (ابن الجوزي، 1922م، ج16، 56)؛ (الحسيني، 1984م، 17)؛ (النويري، 2004م، ج26، 166)؛ (ابن الوردي، 1996م، ج1، 353)، الذي استغل تمرد إبراهيم ينال[2] (ابن الأثير، 1987م، ج8، 341-345)؛ (الحسيني، 1984م، 19،17)؛ (النويري، 2004م، ج26، 161) على أخيه طغرلبك، فتوجه زاحفاً إلى بغداد حاملا الرايات المستنصرية ذات اللون الأبيض شعار الفاطميين في مصر، والتي كُتب عليها الإمام المستنصر بالله أبو تميم، وكانت هذه الرايات تحدياً سافراً للخلافة العباسية، لكن طغرلبك استأصل شأفة أخيه أولاً وقتله سنة 450هـ/ 1058م ليتفرغ فيما بعد للقضاء على البساسيري. (الحسيني، 1984م، 18-20)؛ (الصابئ، 1998م، 99-100).

---

[1] البساسيري: هو أرسلان بن عبدالله أبو الحارث، يعود نسبه إلى بلدة بفارس اسمها "بسا"، تركي الأصل، بدأ حياته العسكرية كعبد تركي في خدمة الأمير البويهي بهاء الدين فيروز (ت 403هـ/ 1012م)، وتدرجت به المناصب حتى أصبح مقدم الأتراك في بغداد، وخطب له على منابر العراق، وعظم شأنه وقويت شوكته إذ لم يكن للخليفة العباسي القائم بأمر الله (ت 476هـ/ 1074م)، أو الملك الرحيم البويهي أي سلطة عليه تذكر.

[2] إبراهيم ينال: هو أخو طغرلبك من الأم قهستان، تولى إلى جانب أمراء الأسرة السلجوقية قيادة الجيوش وإخضاع العديد من البلاد إلى سيطرة الدولة السلجوقية، وكان يطمح في الاستقلال بحكم المناطق التي استولى عليها. وينال هو لقب عسكري يطلق عادة على معاون قائد الجيوش.

فوضع حداً لهذه الحركة ذات الميول الشيعية، وقضى عليها، وبالتالي غدا هو سيد الموقف في بغداد، وأعاد الحاضرة إلى توجهها السني بعد أن استطاع أن ينهي حركة فكرية تميزت بنهج ثوري وعسكري فريد لم تشهدها تلك الحقبة.

وبعد استقرار طغرلبك في بغداد، استأثر بجميع السلطات في الدولة ثم وضع نظام حكمٍ جديدٍ، حيث فصل بين السلطة والدين، فغدا السلاجقة هم الحكام الفعليين في حين غدا العباسيين القادة الروحيون وصارت هذه الثنائية أمر معترف به في الدستور الإسلامي طيلة الحكم السلجوقي، وقد ترتب على ذلك أيضاً وجود وزير للخليفة العباسي، ووزير للسلطان السلجوقي.

أ- النزاع على العرش السلجوقي بعد وفاة طغرلبك وتولية ألب أرسلان السلطنة (455-566 هـ / 1063-1072 م):

توفي السلطان طغرلبك بمدينة الريّ[3] (الحموي، 1997م، ج3، ص116-117)، سنة 455هـ/ 1073م، دون أن يترك ولداً يخلفه على سدة الحكم، وبالوقت نفسه لم يكن قد وضع نظاما لتولي عرش السلطنة السلجوقية من بعده، وقد كان هذا سبباً في إثارة النزاع والتساؤل معاً حول من سيحظى بالعرش السلجوقي، فالوزير عميد الملك الكندري[4] (ابن الجوزي، 1992م، ج16، 92-93)؛ (خواندمير، 1980م، 244)؛ (الراوندي، 1960م، 186-187)، وزير طغرلبك، أجلس على عرش السلطنة سليمان بن داود ابن أخ السلطان طغرلبك، الذي لم يتجاوز من العمر الرابعة ببضعة أشهر، وأمر أن تقرأ الخطبة باسمه في مدينة الريّ، اذ زعم الوزير الكندري أن طغرلبك قد عهد إليه بالملك بتأثير من زوجته أم سليمان أرملة أخيه الأكبر جغرى بك داود. (ابن الجوزي، 1992م، ج16، 72)؛ (البنداري، 1980م، 27). ومن الواضح أن موقف الكندري هذا كان بدافع مصالح شخصية تمثلت بمحاولته الحفاظ على منصب الوزارة من جهة والسيطرة على سليمان من جهة أخرى.

ولكن لم يرض ألب أرسلان بن جغرى بك داود بتعيين أخيه الأصغر ولياً للعهد وهو الأخ الأكبر البالغ من العمر واحد وثلاثون عاماً ويتمتع بسمعة طيبة وخبرة وكفاءة عالية في إدارة شؤون الدولة من خلال تسلمه حاكماً لخراسان وما راء النهر، فضلاً عن تلقيه التأييد الواسع من معظم أمراء السلطنة من جهة، ودعم ومساندة من رجل عاقل ذكي مشهود له بالبراعة، والحنكة السياسية والإدارية والعسكرية وزيره نظام الملك الطوسي[5]. (إقبال، 1984م، 96 وما بعدها)؛ (ابن الجوزي، 1992م، ج16، 302-307)؛ (اليافعي، 1997م، ج3، 103-105).

على هذا النحو، كان ألب أرسلان أول المناهضين لتولية سليمان، فجهز جيشاً كبيراً، ولم يستطيع عميد الملك الوقوف في وجهه، لذلك أذعن له وسلمه الريّ ودعي له بالسلطنة أولاً ثم لسليمان بن داود ثانياً سنة 455هـ/ 1063م. (ابن الأثير، 1987م، ج8، 362)؛ (ابن الجوزي، 1992، ج16، 86-87)؛ (غرس النعمة، 1987م، 195، 197)؛ (ابن العمراني، 1999م، 199).

---

[3] الريّ: مدينة مشهورة، وهي قصبة بلاد الجبل، تبعد عن نيسابور مئة وستين فرسخاً، كثيرة الفواكه والخيرات وكانت مبنية من الآجر، لكن أصابها الدمار والخراب فيما بعد، أهلها ثلاث: طوائف شافعية وهم الأقل، وحنفية وهم الأكثر، وشيعة وهم السواد الأعظم.

[4] عميد الملك الكندري: محمد بن منصور، أبو نصر الكندري، كان يلقب عميد الملك. ولد سنة 376هـ/ 986م، ولقب الكندري نسبة إلى قرية تتبع نيسابور تدعى كندر، تسلم الوزارة في عهد السلطان طغرلبك مدة عشرين عاماً، كان معروفاً بالذكاء والفراسة ومشهوراً بالفضل والكياسة، وكانت له أياد بيضاء في الكتابة والفصاحة، قتل بأمر من السلطان ألب أرسلان سنة 456هـ/ 1064م.

[5] نظام الملك الطوسي: الحسن بن علي بن إسحاق بن العباس، أبو علي الطوسي الملقب بنظام الملك، ولد سنة 408هـ/ 1017م في توقان وهي إحدى المدن التابعة لولاية طوس، وهو صاحب المدارس النظامية التي أسسها في كل أرجاء السلطنة السلجوقية، كان رجلاً عاقلاً بارعاً في السياسة والحرب والإدارة محباً للعلم والعلماء، توفي سنة 485هـ/ 1092م.

على هذا النحو، كان ألب أرسلان أول المناهضين لتولية سليمان، فجهز جيشاً كبيراً، ولم يستطيع عميد الملك الوقوف في وجهه، لذلك أذعن له وسلمه الريّ ودعي له بالسلطنة أولاً ثم لسليمان بن داود ثانياً سنة 455هـ/ 1063م. (ابن الأثير، 1987م، ج8، 362)؛ (ابن الجوزي، 1992، ج16، 86–87)؛ (غرس النعمة، 1987م، 195، 197)؛ (ابن العمراني، 1999م، 199).

كان هذا الصراع الشرارة الأولى لبدء حروب الوراثة ومشكلة التنازع على العرش السلجوقي والتي أوصلت الدولة السلجوقية إلى الهاوية، وشغل الوزراء دوراً كبيراً في تأجيجها، وهذا ما أدى إلى حدوث اشتباكات بين ألب أرسلان بمساعدة وزيره نظام الملك الطوسي الذي تمتع بذكاء وفطنة، وبين الوزير عميد الملك لكن مشكلة العرش انتهت لصالح ألب أرسلان حيث حسمها بالسيف، فأصبح سلطاناً على السلاجقة، في حين حسم صراع الوزراء لصالح نظام الملك الطوسي فشكل مع ألب أرسلان ثنائياً قوياً مكنهم من بناء دولة واسعة الحدود، حيث وصلت الدولة السلجوقية في عهده وعهد ابنه ملكشاه أوج قوتها وازدهارها.

وما أن استقرت السلطنة للسلطان ألب أرسلان حتى تجددت مشكلة التنازع على العرش السلجوقي حين أعلن ابن عمه شهاب الدين قتلمش بن إسرائيل[6] (بيغو أرسلان) (ابن الأثير،1987م، ج8، 367)؛ (الحسيني، 1984م، 30–32). العصيان وحاصر الريّ سنة 455هـ/ 1063م، ولما وجدها مستعصية عليه خرّب ما حولها من القرى لإرغام أهلها على الاستسلام، لكن ألب أرسلان تصدى له بحملة كبيرة أجبره فيها على الانسحاب بعد هزيمة قاسية، ودخل ألب أرسلان الريّ وهناك حاكم عميد الملك وطالبه بالأموال التي أنفقها على تولية أخيه سليمان بن داود، ثم سجنه وبعدها أمر بقتله. (ابن الأثير، 1987م، ج8، 364، 376)؛ (الحسيني، 1984، 31–32)؛ (الراوندي، 1960م0، 186–187).

وما أن انتهى من حربه مع ابن قتلمش حتى ثار عمه فخر الملك بيغو بن ميكائيل أكبر السلاجقة سناً ووالي هراة[7]سنة 457هـ/ 1065م (الحموي، 1997م، ج5، 396)؛ (لسترنج، 1985م، 449–451) مطالباً بأحقيته بالعرش، إلا أن ألب أرسلان نجح باستمالته بعد أن عامله بكل ودّ واحترام، وأقره على حكم المناطق التي كانت خاضعة له (ابن الاثير،1987، ج8، 366)، ثم دخل ألب أرسلان في خضم معارك كثيرة ضد أخيه قاورد بن جغرى بك والي كرمان[8] وذلك سنة 457– 462هـ/ 1064– 1069م (الحموي 1997م، ج4، 454)، وجميع هذه المعارك لم تكن حاسمة وظلّ قاورد بك مسيطراً على كرمان لكنه لم يستطع تحقيق أطماعه في فارس، مما يدل على نجاح السلطان ألب أرسلان في سياسته تجاه هذا الإقليم وهو الاحتفاظ به بعيداً عن سيطرة قاورد بك. (البنداري، 1980م، 33)؛ (أبو النصر، 2003م، 80)؛ (طقوش، 2016م، 97).

وعلى الرغم من الحروب المتتالية بين السلطان السلجوقي ألب أرسلان وأقاربه على العرش إلا أن هذه الحرب لم تثني ساعده في توطيد دعائم دولته وتوسيع رقعتها حتى امتدت إلى أقاصي بلاد ما وراء النهر، وأقاصي بلاد الشام وآسيا الصغرى بعد نصره على البيزنطيين ولقنهم درساً في فن الحرب أجبرهم على دفع جزية سنوية للسلاجقة. فكانت موقعة ملاذ كرد[9]سنة 463هـ/1071م

---

[6]قتلمش بن إسرائيل: ورد باسم قطلمش أو قطلموش، هو شهاب الدولة قتلمش بن إسرائيل (بيغو أرسلان) بن سلجوق بن دقاق، جد ملوك الدولة السلجوقية في آسيا الصغرى، وابن عم السلطان طغرلبك، طمع بعرش السلطنة إلا أنه هزم على يد ألب أرسلان، توفي سنة 456هـ/1064م، وتعددت الروايات حول وفاته إذ قيل أنّه سقط عن دابته، وقيل أنّه توفي متأثراً بجراحه التي أصيب بها بعد قتاله مع ألب أرسلان، وكان يعلم علم النجوم.

[7]هَرَاة: مدينة عظيمة مشهورة من أمهات مدن خراسان، فيها بساتين كثيرة ومياه غزيرة وخيرات كثيرة، اشتهرت بزراعة الفستق والقمح والكرمة.

[8]كَرْمَان: ولاية مشهورة بين فارس ومكران وسجستان وخراسان، وناحية معمورة ذات بلاد وقرى ومدن واسعة، وهي كثيرة الزرع والمواشي والتمور وقصبتها السيرجان.

[9]ملاذ كرد: وتعرف باسم مناز جرد ومنز كرد، وهي بلدة بين خلاط من أرمينيا وبلاد الروم على نهر أرسناس، خصبة وكثيرة البساتين.

(الحموي، 1997م، ج5، 202)؛ (لسترنج، 1985م، 148) نقطة تحول في تاريخ السلاجقة حيث فتحت الطريق لهم نحو آسيا الصغرى وكانت فاتحة للصراع بين الشرق والغرب، وفي شن حروب صليبية مستعرة على المشرق العربي الإسلامي سنة 492هـ/ 1096م. ويسرت القضاء على النفوذ البيزنطي في بعض من أجزاء آسيا الصغرى وبقية الأجزاء الشرقية من بيزنطة التي لم تعد تستطيع الصمود في وجه التوسع السلجوقي في آسيا الصغرى فكونوا دولة سلجوقية عرفت بسلاجقة الروم. (العسيري، 1996م، 240)؛ (عطا، د.ت، 49).

فأقام دولة قوية ثابتة البنيان ساعده في تشييدها وزيره نظام الملك الطوسي الذي اشترك بحسن سياسته ودقة تدبيره في إنجاح أهداف السلطنة فلم تضيع جهود ألب أرسلان سدى بعد وفاته.

ب- حرب الوراثة وانعكاساتها في عهد السلطان ملكشاه (465-485هـ/ 1073-1092م):

أوصى السلطان ألب أرسلان في سنة 458هـ/ 1065م وزيره نظام الملك أن يكون ابنه ملكشاه وليا للعهد وأن يقسم البلاد بين أبنائه ولضمان تنفيذ الوصية جمع كبار رجال وقادة دولته وأخذ منهم العهود والمواثيق بالتبعية والخضوع لملكشاه.

وفي المقابل عين بعض أقاربه وأبنائه على معظم خراسان كبلخ[10] (الحموي، 1997م، ج1، 479) ومرو[11] (الحموي، 1997م، ج5، 113-114) وخوارزم[12] (الحموي،1997م،ج2، 395-397)؛ (لسترنج، 1985م، 502)، وطخارستان[13] (الحموي، 1997م، ج4، 23)؛ (لسترنج، 1985م، 409) وغيرها من المناطق مما يدل دلالة واضحة أن السلطان كان يسعى إلى عدم تضارب المصالح بين أقاربه وحقوق كل واحد منهم. وبالفعل، تم تنفيذ الوصية، وتولى ملكشاه السلطنة وهو في السابعة عشر من عمره، وذلك سنة 465هـ/1072م، وأسند منصب الوزارة إلى وزير أبيه نظام الملك الطوسي. (ابن الأثير، 1987م، ج8، 376).

وفي الحقيقة، لم يكن استتباب الحكم لملكشاه بالأمر اليسير فقد بدأت مشكلة الأحقية بالعرش السلجوقي تطل برأسها من جديد حيث قوبل بمؤامرة قادها عمه قاورد بن داود حاكم كرمان، الذي أيقن أن حلمه القديم قد أصبح ممكناً بعد وفاة أخيه السلطان ألب أرسلان فأرسل إلى ملكشاه محذراً مطالباً بالسلطنة قائلاً: "أنا الأخ الأكبر وأنت الولد الصغير وانا أولى منك بميراث أخي السلطان ألب أرسلان"، فجاء رد ملكشاه واضحاً: "الأخ لا يرث مع وجود الابن" (الحسيني، 1984م، 56)، غير أن ملكشاه نجح بالقضاء عليه بمساعدة وزيره نظام الملك، واتجه إلى تنظيم دولته، وفوض الولايات إلى الأمراء، فأسند ولاية فارس إلى الأمير ركن الدولة

---

[10] بَلْخ: إحدى مدن خراسان الشهيرة تقع داخل إقليم خراسان الشمالي منه، وهي أقدم مدنه وأشهرها وأكثرها خيراً وأوسعها غلة.

[11] مَرْو: أشهر مدن خراسان ومعناها باللغة العربية الحجارة البيض، تقع على نهر مرغاب أرضها مستوية بعيدة عن الجبال أشتهرت بزراعة القطن والسمسم، وصناعة الجلود والأسلحة.

[12] خوارزم: اسم لناحية قصبتها الجرجانية، يحدها من الشرق بلاد ما وراء النهر، ومن الشمال بعض بلاد الترك، ومن الغرب بحر الخزر (قزوين)، ومن الجنوب خرسان، وهي في آخر نهر جيحون، شتاؤها شديد البرودة، ولأهلها طبائع الترك، وهي عامرة بالأسواق.

[13] طخارستان: اسم ناحية من نواحي خراسان إلى الشرق من بلخ غرب جيحون وهي من كورها، وتقسم إلى طخارستان العليا: وهي شرق بلخ وغرب نهر جيحون، والسفلى: غرب نهر جيحون لكنها أبعد عن بلخ من ناحية الشرق، من حواضر طخارستان مدينة طالقان الواقعة على الطريق بين مرو وبلخ، وطخارستان هي محافظة طخار الحالية في أفغانستان.

قتلمج تكين، وخلع على أخيه شهاب الدولة تتش، وولّاه بلخ وطخارستان، كما عين بوري برسى بن داود والياً على هراه ونواحيها وأتخذ من أصفهان[14] (الحموي، 1997م، ج1، 307–308)؛ (خسرو، 1993م، 173–174) حاضرة لملكه.

كما أرسل رئيس شحنة[15] بغداد (أبو النصر، 2003م، 301–303) سعد الدين كوهرائين[16] (ابن الأثير، 1987م، ج8، 391)؛ (النويري، 2004م، ج26، 198) إلى الخليفة العباسي القائم بأمر الله يطلب منه تفويضاً بالسلطنة وذكر اسمه على الخطبة، استجاب الخليفة لطلبه وأرسل سنة 466هـ/1073م الخلع والعهد بالسلطنة. (ابن الأثير، 1987م، ج8، 403)؛ (البنداري، 1980م، 51)؛ (أمين، 1965م، 76).

ولعلّ أخطر ما تعرض له ملكشاه هو الموقف العصيب الذي أرّق دولته الشاسعة وتمثل بالنزاع بين سليمان بن قتلمش وتاج الدولة تتش حول الممتلكات السلجوقية الخاصة لكل منهما في شمال بلاد الشام، حيث توجه سليمان إلى حلب مطالباً بها بعد استيلائه على أنطاكية مما اضطر تاج الدولة تتش إلى قتاله، وذهب السلطان ملكشاه إلى حلب وأطمئن إلى ولاء أخيه تتش وأقرّ حكمه على بلاد الشام. (ابن القلانسي، 1983م، 194– 195)؛ (طقوش، 2016م، 145–146).

ومن الجدير بالذكر أن الدولة السلجوقية في عهد السلطان ملكشاه بلغت أقصى اتساع لها فصارت تمتد من حدود الصين شرقاً إلى الشام غرباً، ومن بحيرة خوارزم شمالاً إلى آخر بلاد اليمن جنوباً، ولكن بوفاته المفاجأة[17](1) سنة 485هـ/1092م (ابن الأثير، 1987م، ج8، 482)؛ (الحسيني، 1984م، 71)؛ (الراوندي، 1960م، 210)؛ (الفارقي، 1959م، 229)، انفرط عقد الدولة السلجوقية وتمزقت وحدتها وقوتها وانتهى العصر السلجوقي الأول المسمى بعصر السلاجقة العظام، أو العصر الذهبي للدولة السلجوقية، وبدأ الضعف ينخر في كيان الدولة بسبب الانقسام والنزاع على منصب السلطنة إذ غدا منصب السلطان مطلب كل فرد من أفراد البيت السلجوقي، وبدأت سلسلة من حرب الوراثة بين الأبناء والأعمام، وبين الأبناء أنفسهم مدعومين من أمهاتهم أو من أتباع آبائهم.

ج–حروب الوراثة وانعكساتها في عهد السلطان بركيارق (487–498هـ/1093–1105م):

برزت في أواخر عهد السلطان ملكشاه مشكلة هي مسألة اختيار ولي العهد، فقد ترك السلطان ملكشاه أربعة من الأبناء، هم بركيارق ومحمد وسنجر ومحمود.

---

[14]أصفهان: مدينة عظيمة من نواحي الجبل وهي اسم لإقليم بأسره، تقع على نهر كان يعرف بنهر أصفهان. ومن أبرز أعمالها قسهتان ورستاق وجايلق، وهي اليوم من أهم مدن إيران.

[15]شحنة: من المناصب التي استحدثها السلاجقة في بغداد، ويعين صاحبها من قبل السلطان السلجوقي، والسلطان طغرلبك هو أول من اتخذ له شحنة ببغداد سنة 447هـ/ 1055م، ويتمتع شاغلها بسلطات إدارية وحربية، فهو المسؤول عن إدارة المدينة والمحافظة على أمنها واستقرارها وملاحقة الخارجين عن النظام ومعاقبة المسيئين، وكان لكل مدينة سلجوقية شحنة، وخاصة مدن العراق، وبصفة أخص بغداد لوجود الخليفة فيها، وهي تشبه اليوم مهام محافظ المدينة.

[16]سعد الدين كوهرائين: من الخدم الأتراك، كان في خدمة الملك البويهي أو كاليجار، ثم انتقل إلى خدمة السلطان طغرلبك بعد دخوله بغداد، وتنقل في خدمة الملوك السلاجقة، تولى شحنة بغداد من قبل السلطان ألب أرسلان سنة 464هـ/ 1071م. كما أقطعه واسط، وقتل أثناء الصراع بين السلطانين بركيارق ومحمد.

[17]توفي السلطان ملكشاه عن تسع وثلاثين عاماً وقد تعددت الروايات حول سبب وفاته، فالمؤرخ ابن الأثير يذكر أن سبب وفاته أنه لحم صيد فأكثر منه فحمّ، بينما يذكر الفارقي أنه مات مسموماً، أما الحسيني فيذكر أنه مات ميتة طبيعية ويؤيده في هذا الرأي الراوندي.

وفي الحقيقة، انحصر التنافس على العرش بين اثنين، هم بركيارق الابن الأكبر والبالغ من العمر ثلاثة عشر عاماً وكان يقيم في أصفهان يسانده ويدعمه أتباع الوزير نظام الملك، وأخيه الأصغر محمود البالغ من العمر أربعة أعوام وكان في بغداد مع والدته تركان خاتون[18]. (ابن الجوزي، 1992م، ج17، 14).

ومن الملاحظ أن محمود لم يكن في سنّ تسمح له بالتفكير في إعلان السلطنة، لكن حالفه الحظ بوجود تركان خاتون أم له تتمتع بالذكاء والقوة حيث نجحت بتنصيب ابنها الصغير محمود سلطاناً وبالحصول على اعتراف من الخليفة العباسي بذلك، وأن تسجن بركيارق، لكن أنصاره تمكنوا من إنقاذه وتنصيبه سلطاناً، وبالتالي غدا هناك سلطانان، سلطان في بغداد والآخر في أصفهان، وبدأت الحرب بين تركان خاتون وبركيارق والتي انتهت بانتصاره سنة 487هـ/ 1093. (ابن الأثير، 1987م، ج8، 484–485)؛ (براون، 2004م، 275–276).

وما إن تسلم بركيارق السلطنة حتى نشب نزاع جديد حول العرش وأعلن عمه تاج الدولة تتش الذي كان والياً على دمشق أنه أحق بالسلطنة، وسيطر على مناطق عديدة، وهدد بركيارق فاصطدم معه وانتصر عليه وهزمه ففر إلى الشام. (ابن القلانسي، 1983م، ج1، 204، 206، 208). عاد تتش مرة أخرى إلى الواجهة ولكن هذه المرة كان قوياً ومستعداً، ومع ذلك خسر المعركة قرب الريّ سنة 488هـ/ 1095م، وسقط فيها قتيلاً (ابن الأثير، 1987م، ج8،502)؛ (ابن الجوزي، 1992م، ج 17، 19). وانعكست هذه المعارك على وحدة الصف السلجوقي فأدت إلى تفرقة السلاجقة وسارت بهم نحو الانحلال والتفكك.

أما الصراع الثاني فقد قام به عمه أرسلان أرغون في المدة التي انشغل بها السلطان بركيارق بتثبيت دعائم حكمه، فأعلن عمه أرسلان العصيان عليه سنة 489هـ/ 1096م، وسانده في هذا التمرد شحنة مرو وكان يدعى الأمير قودن وهو أحد مماليك السلطان ملكشاه مكوناً جبهة واحدة ضد السلطان بركيارق، فاستولى على مرو وبلخ وترمذ[19]. (الحموي، 1997م، ج1، 26).

وقد أرسل السلطان بركيارق عمه بورى برسي بن ألب أرسلان لقتاله وانضم إليه قادة خراسان وقاتلوا أرسلان أرغون عند حدود خراسان، فانهزم أرسلان وانسحب إلى مدينة بلخ واستولى بوري برسي على مدينة مرو، إلا أنه ما لبث أن عاد وهزم بوري الذي وقع أسيراً بيد أرسلان الذي أمر بسجنه ثم قتله سنة 490هـ/ 1097م، عندئذ أرسل بركيارق جيشاً بقيادة أخيه سنجر للقضاء عليه، وفي هذه الأثناء وصلت أخبار مقتل أرسلان أرغون على يد غلمانه لأنه كان شديداً عليهم وكثير الإهانة والعقوبة لهم، فتوجه بركيارق إلى نيسابور وعين أخاه سنجر والياً على خراسان وبلاد ما وراء النهر، وكان عمره لا يتجاوز عشر سنوات وسمّي ملك المشرق. (ابن الأثير، 2003م، ج9، 7–8)؛ (طقوش، 2016م، 163).

فما كاد بركيارق يقضي على فتنة عمه أرسلان ويبسط نفوذه على جميع ما يملك من آراضي حتى ظهرت فتنة أخرى في بلاده كانت برئاسة أحد أمراء البيت السلجوقي وهو محمد بن سليمان الملقب بأمير اميران وهو ابن عم السلطان ملكشاه. وقد ساعد محمد بن سليمان في خروجه علاء الدين بن سبكتين صاحب غزنة وحفيد السلطان محمود الغزنوي الذي جهزه بأعداد كبيرة من الفيلة إضافة إلى جيشه الكثير على شرط أن يخطب له في جميع المناطق التي يستولي عليها في خراسان.

---

[18] تركان خاتون: زوجة السلطان ملكشاه، وهي بنت الملك طمغاج خان أحد ملوك الخانية فيما وراء النهر، وهو من نسل أفراسياب، ملك الفرس، كانت حازمة حافظة شهمة، وكان معها من الأتراك إلى حين وفاتها عشر آلاف، وقد حفظت أموال ملكشاه بعد موته فلم يذهب منها شيء. توفيت سنة 487هـ/ 1093م.

[19] تِرْمِذ: مدينة على الضفة الشرقية لنهر جيحون الذي كان حداً حصيناً لها، وهي مجاورة لمدينة بلخ ومتصلة بها.

وأعلن محمد بن سليمان العصيان على السلطان بركيارق في بلخ فسير إليه السلطان سنجر بن ملكشاه جيشاً وبعد قتال شرس بين الطرفيين استطاع جيش السلطان سنجر أن يأسره وأدخله السجن فكان هذا أول عمل عسكري للسلطان سنجر بعد أن تولى ولاية خراسان. (ابن كثير، 1988م، ج12، 193).

وبالمقابل فقد تأثر منصب الوزارة إلى حد كبير بالظروف السياسية التي مرت بها الدولة السلجوقية إذ شكل التنافس على منصب الوزارة بين أبناء نظام الملك أنقسم أو مع غيرهم من الطامعين بها سبباً في ازدياد الانقسام داخل البيت السلجوقي مما أدى إلى قيام النزاعات بين الأبناء والأعمام فقد اتصل الوزير مؤيد الملك بن نظام الملك الوزير الذي استقصاه بركيارق عن منصبه بأخ بركيارق ويدعى محمد وشجعه على خلع أخيه وبالفعل حصل على ما يريد وتم تعيينه من قبل محمد وزيراً له، وخطب له في بغداد بعد أن قويت شوكته واتسع نفوذه بعد أن ضم إليه كل من قوام الدولة أبو سعيد كوهرائين وكربوقا صاحب الموصل وغيرهما من السلاجقة وأعاد لهم امتيازاتهم، ولكن بعد عام من الصراع عادت الخطبة لبركيارق في بغداد.

وهنا بدأ الصراع بين الأخوة، وأضحا قطبين متنافسين في الدولة السلجوقية وجرت بين الأخوين خمس معارك كبرى استمرت ما بين 492 –497هـ /1099–1105م .

حقق فيها بركيارق نصراً في أربعة منها لكن المعركة الخامسة كان النصر فيها لمحمد بن ملكشاه. (الراوندي، 2015م، 228)؛ (البنداري، 1980م،81،85).

والجدير بالذكر أن هذه الحروب أنهكت الجانبين، كما لمس السلطان بركيارق مخاطر استمرارها على قوة ونفوذ وهيبة الدولة السلجوقية ومنظومتها السياسية، فعقد صلحاً مع أخيه محمد سنة 497هـ/ 1104م، واتفق الاثنان على أن يكون لمحمد البلاد من نهر اسبيذروز[20] (الحموي،1977م ،ج1،172–173) إلى باب الأبواب[21] (لسترنج، 1985م، 214) وديار بكر والجزيرة والموصل والشام، ويكون له من العراق بلاد سيف الدولة صدقة بن مزيد[22] (ابن تغري بردي، 1992م، ج5،193)، أما بركيارق يكون له الأقاليم الجنوبية وحمل كل منهم لقب السلطنة وظل سنجر حاكماً على خراسان (ابن الأثير،1987، ج8، 70–71). مما سلف يلاحظ أن حالة السلاجقة سياسياً أخذت في الضعف والانهيار خلال سلطنة بركيارق، فالصراع على السلطنة، فتك بالوحدة السلجوقية وأفقدها حيويتها وقوتها.

توفي بركيارق سنة 498هـ/ 1105م تاركاً ابنه ملكشاه البالغ من العمر أربع سنين وثمانية أشهر خلفاً له، وأخذت له البيعة من الخليفة العباسي المستظهر بالله بنفس السنة، غير أن عمه محمد بن ملكشاه لم يسكت عن الأمر، وإنما توجه إلى بغداد ودخلها من الجانب الغربي، وهناك أخذت المساجد في هذا الجانب تدعو للسلطان محمد بن ملكشاه في حين بقيت المساجد في الجانب الشرقي تدعو لملكشاه بن بركيارق، وأصبح هناك سلطانان في وقت واحد.

---

[20] اسبيذروز: معناها النهر الأبيض وهو اسم النهر المشهور من نواحي أذربيجان ويصب في بحر جرجان على بعد عدة فراسخ من همذان.

[21] باب الأبواب: وهي ميناء من أجلّ موانئ بحر قزوين تقع في أقصى شمال بلاد شروان، وسماها العرب "دربند".

[22] صدقة بن مزيد: هو سيف الدولة صدقة بن بهاء الدولة منصور بن دبيس بن علي بن مزيد الأسدي، صاحب الحلة السيفية، يلقب بملك العرب، كانت شخصيته قوية ذو هيبة، ساءت علاقته مع السلطان محمد، مما أدى لقيام قتال بين الطرفين قتل فيها الأمير صدقة في منطقة النعمانية من أعمال الحلة سنة 501هـ/ 1108م.

هذا الصراع وهذا المشهد يمثل أصدق تعبير على ما كانت تعانيه بغداد نتيجة الاختلاف السياسي والانقسامات التي حدثت بين الحكام السلاجقة، ولما وجد الأمير أياز أتابك[23] (دهمان، 1990م، 158) السلطان ملكشاه بن بركيارق انقسام السلاجقة، سعى للصلح وتم له ذلك وأصبحت السلطنة لمحمد بن ملكشاه دون منازع وذلك سنة 498هـ/1105م ونجت بغداد من فتنة كبيرة كادت تودي بكثير من أرواح أهلها وممتلكاتها. (ابن الأثير، 2003م، ج9، 80–81)؛ (أمين، 1965م، 80–81)؛ (ابن كثير، 1988م، ج12، 225)، ومن الجدير بالذكر أن السلاجقة اتفقوا على حكم السلطان محمد الذي استمر حوالي اثنا عشر عاماً وتميز بالهدوء النسبي، ولم تذكر المصادر التاريخية أي نزاع حول السلطنة ويعود ذلك إلى انشغال البيت السلجوقي بمحاربة الباطنية[24] (رستم، 2007م، 281، 292–297)، فقد بذل السلطان محمد جهوداً كبيرة للقضاء عليهم، إلا أنه أخفق، لكنه نجح في إضعافهم وتقليل خطرهم بعدما تكبدت الدولة السلجوقية خسائر فادحة كانت عاملا في إضعاف قواها المادية والسياسية.

د–حرب الوراثة بين أبناء السلطان محمد وموقف الخلافة العباسية (511– 552هـ/ 1117– 1157م):

توفي السلطان محمد سنة 511هـ/ 1117م تاركاً خلفه من الأبناء محمود ومسعود وطغرل وسليمان شاه وسلجوق شاه. وحصل انقسام واضح في جسم الدولة السلجوقية، فالسلطان محمد كان قد أوصى بعده لولده محمود وكان في الرابعة عشرة من عمره، ووافق الخليفة العباسي المستظهر بالله على ذلك، ولكن هذا الحال لم يعجب عمه سنجر الذي استغل وضع محمود السيء بعد أن قامت حاشيته بتبذير أموال السلطنة مما تسبب بأزمة اقتصادية خانقة، وهذا ما أعطى سنجر فرصة للمطالبة بالعرش بعدّه أكبر أفراد الأسرة السلجوقية، وبالتالي أصبح للعالم السلجوقي سلطانان واندلعت حرب الوراثة بينهما. (البنداري، 1980م، 112).

انتهت الحرب هذه بنصر سنجر عند ساوه (الحموي، 1977م، ج3، 179) سنة 513هـ/ 1120م، وهنا بدأت مرحلة جديدة في السياسة السلجوقية إذ أن سنجر قد جعل محمود ولياً لعهده ونائباً عنه في العراق وذلك سنة 513هـ/1119م، وسمح له أن يتلقب بالسلطان، غير أنه جرده من كل صلاحياته من رسوم السلطنة، وأن يكون في خدمة سنجر لمدة شهر لا يدق له بوق في حين الخطبة والسكة والقرارات المهمة يديرها سنجر، أي هو سلطان شكلي لا حول له ولا قوة. (الحسيني، 1984م، 88–89)؛ (الراوندي، 1960م، 259).

يتبين من خلال هذا الاتفاق أنه تم خلق سلطنة ضمن سلطنة، إذ ظهر ما يعرف بسلاجقة العراق، التي مثلها محمود حيث يعد أول نائب ينوب عنه على كرسي الحكم في العراق ويأتمر بأمره وهذا يعني أنه خاضع له من الناحية الرسمية وتابعاً لسلطنة السلطان الأعظم في خراسان، وقد أيّد هذا الاتفاق الخليفة العباسي المسترشد بالله.

غير أن الحرب ما لبثت أن استعرت مرة جديدة بين الأخوين الملك مسعود صاحب الموصل وأذربيجان والسلطان ومحمود على كرسي السلطنة، وذلك بتحريض من أمير الحلة[25] (الحموي، 1977م، ج2، 294) دبيس بن صدقة الذي كاتب أتابك مسعود ويدعى جيوش بك وأغراه بالعصيان ووعده بطلب السلطنة لمسعود، وبالفعل التقى الفريقان سنة 514هـ /1120م وأسفر اللقاء عن هزيمة

[23]أتابك: ومعناها الوالد الأمير باللغة الفارسية، وهذا اللقب يتكون من لفظين، أتا: بمعنى أب أو الشيخ المحترم، وبك: بمعنى أمير، وكان صاحب هذا اللقب يقوم بمهمة الوصاية والإشراف على تربية وتعليم الأمير السلجوقي الصغير.

[24]الباطنية: حركة انبثقت عن الحركة الإسماعيلية الشيعية إثر وفاة الخليفة الفاطمي المستنصر بالله، وكانت ذات طابع عسكري، كما عرفوا بالإسماعيلية النزارية، وقد نجحوا بتأسيس دولة خاصة بهم في الأقاليم الشرقية من العالم العربي الإسلامي سنة 483هـ/ 1090م، مقرها قلعة ألموت بقيادة الحسن الصباح، استمرت سبع وسبعين ومائة سنة.

[25]الحلّة: مدينة كبيرة تقع بين الكوفة وبغداد على شط العرب كانت تسمى الجامعين وأول من عمرها ونزل بها سيف الدولة صدقة بن مزيد.

مسعود إلا أن السلطان محمود عفا عنه وتصالح الأخوان عندئذ قام دبيس بن صدقة بمهاجمة بغداد في نفس السنة وأكثر فيها النهب والسلب وأحرق الغلات مما أدى إلى خوف أهل بغداد واضطرار أكثرهم إلى ترك مناطقهم خوفاً على حياتهم وممتلكاتهم، هذا ما أجبر الخليفة المسترشد بالله الطلب من السلطان محمود البقاء في بغداد خوفاً من عودة الأمير دبيس إلى مهاجمتها، فوافق السلطان محمود على حماية أهل بغداد مقابل مبالغ مالية كبيرة تدفع له لمدة أربع أشهر تؤخذ كضرائب من الناس وأصحاب الأموال، كما أخذ عن دور الحريم ودكاكينه ومساكنه أجرة شهر، فكثرت الشكاوي وضج الناس. (الذهبي، 2006م، ج14، 391)؛ (ابن الجوزي، 1992م، ج17، 192).

والواضح أن المتضرر الوحيد من حرب الوراثة هو الشعب الذي وقع بين نارين قساوة دبيس وضرائب محمود، وهذا ما دفع الخليفة إلى حشد الرأي العام وتكوين قاعدة شعبية لرفع الظلم عنهم، فقاد حرباً ضد دبيس وانتصر فيها، ثم دخل الحرب معه مرة أخرى بتحريض من طغرل بن محمد، كانت نتيجتها الانتصار أيضا إضافة إلى وقوع دبيس أسيراً بيده، غير أن الخليفة أطلق سراحه فالتحق بطغرل في خراسان. (ابن الجوزي، 1992م، ج17،228–229).

وعادت هيبة الخلافة من جديد وقويت سلطة الخليفة العباسي المسترشد بالله، ورغب الخليفة في إضعاف قوة السلاجقة وزيادة الانقسام فيما بينهم للتخلص من سيطرتهم والاستقلال بالعراق فقام بتحريض السلطان محمود ضد عمه السلطان الأكبر سنجر واتفق الاثنان على قتال الأخير، وصلت هذه الأخبار إلى السلطان سنجر فأسرع وكاتب ابن اخيه محمود وحذره بعد أن أفهمه أنه يمينه وأن الخليفة عزم أن يمكر بينهما وبالفعل أطاع محمود عمه وتغير الموقف السياسي بين الخليفة والسلطان محمود من الوفاق إلى الصدام، حيث أراد السلطان محمود دخول مدينة بغداد وذلك في سنة 521هـ/ 1127م، إلا أن الخليفة لم يوافق وطلب تأجيل الأمر ريثما يتمكن من إصلاح البلاد التي تضررت بسبب الحروب التي خاضها ضد دبيس، وسببت فساد وغلاء المعيشة، لكن السلطان محمود رفض طلب الخليفة، فخرج الأخير مع أبنائه خارج بغداد، وهذا ما دفع محمود إلى مهاجمة بغداد ونهبها، وأرسل إلى الخليفة في الصلح فرفض الخليفة طلبه وأمر بتجهيز العساكر وعاد إلى بغداد وهزم السلاجقة وشتت شملهم، وكاد أن يحقق النصر لولا خيانة أبي الهيجاء حاكم إربل[26] (لسترنج، 1985، 121)، ووصول الإمدادات إلى السلطان محمود من عماد الدين الزنكي. (ابن الأثير 2003م، ج9، 237–239)؛ (الجدبة، 2016م، 33–34)؛ (ابن الجوزي، 1992م، ج17، 231–232)؛ (القلقشندي، 1985م، ج2، 25–26).

توفي السلطان محمود سنة 525هـ/ 1131م، تاركاً خلفه من الأبناء داود ومحمد وملكشاه، فكانت وفاته الشرارة الأولى التي سببت نزاعاً بين الأمراء السلاجقة وسلاطينهم على السلطة، واستغل الخليفة المسترشد الأمر، وبدأ بإحداث الفرقة بقصد إضعافهم وتشتيت شملهم، وأخذ كل أمير يرى في نفسه الأهلية والأحقية في عرش السلطنة.

في تلك المدة كانت المنطقة التي مد السلاجقة نفوذهم إليها يحكمها ثلاث سلاطين، السلطان الأكبر سنجر وهو رأس السلاجقة وكبيرهم، والسلطان طغرل والسلطان مسعود الذي كان ينافس ابن أخيه داود بن محمود على النفوذ والهيمنة، وهذه الحالة سوف تؤدي إلى حروب ومنازعات شديدة وتعمل على تحطيم القوة السلجوقية، وتبعدهم عن وحدة الصف وعدم الانصراف إلى الأعمال الحضارية. (أمين، 1965م، 104).

[26]إربل: مدينة تقع في إقليم الجزيرة بالعراق، يقصدها التجار، واشتهرت بزراعة القطن، وهي اليوم مدينة عامرة ويطلق عليها الناس اسم "أربيل".

بقيت المنطقة تعاني من وطأة الحروب بين السلاطين ففي سنة 526هـ/ 1132م عين السلطان سنجر طغرل سلطانا على العراق، فأعلن داود بن محمود العصيان إلا أن السلطان طغرل استغل الفرصة لإضعاف خصومه وإبعادهم عن بغداد، وجعل ساحة حروبهم وصراعاتهم في همذان وأذربيجان وأصفهان، وجرت معارك كثيرة بينهم أولها كانت بين طغرل وابن أخيه داود، انتصر فيها طغرل وفرّ داود إلى بغداد. (ابن الأثير، 2003م، ج9، 266–267)؛ (الرواندي، 1960م، 306).

وعقد السلطان مسعود تحالفاً مع ابن أخيه داود ضد أخاه طغرل وخاضوا حرباً ضده فانتصروا عليه سنة 528هـ/ 1133م، ولم يسكت طغرل أو يغض النظر عما قام به أخاه مسعود ضده فالتقى معه في معركة كانت نتيجتها الهزيمة وهروب مسعود إلى بغداد لاجئاً إلى الخليفة العباسي الذي حاول جاهداً إغرائه بالعودة لقتال طغرل لكنه رفض. (ابن الأثير، 2003م، ج9، 269–270).

توجه بعدها طغرل إلى بغداد للقتال، فاضطر كل من مسعود والخليفة العباسي المسترشد بالله إلى الوقوف في وجهه، وفي غمرة الأحداث، توفي طغرل فجأة سنة 529هـ/1134م (ابن الأثير، 2003م، ج9، 278)، فسارع مسعود للسيطرة على همذان والاستيلاء عليها قبل ظهور منافس جديد، وهذا ما جعل وضع السلاجقة متفككاً نتيجة صراعاتهم، كما حاول الخليفة المسترشد بالله اقتناص الفرصة، واستعجال نهاية السلاجقة، فوقع في كثير من الأخطاء، دفع حياته ثمنا لها. (ابن الأثير، 2003م، ج9، 281–283)؛ (القزاز، 1971م، 51)؛ (الكازروني، 1970م، 221–222).

إن استهتار السلاجقة بالخلافة العباسية وسوء تصرفهم مع الخلفاء كانت من العوامل الأساسية في أن تحفز الخليفة وتبعث فيه روح الثورة ضدهم والعمل على استرداد الحقوق المسلوبة من الخلافة التي من مقوماتها القوة والاستقلال والسيادة. (أمين، 1965م، 140)، وبناء عل ذلك يمكن القول أن عهد الخليفة المسترشد بالله عهداً جديداً لإرجاع هيبة الخليفة وإيقاظ شعور الأمة للخروج والتحرر من التسلط السلجوقي كما بدأت حركة اليقظة الشعبية العامة والتي كان من زعمائها الشيخ عبد القادر الكيلاني والزنكيين الذين أسهموا بدور بارز في الجهاد ضد الصليبين.(الصلابي، 2006م، 154).

تسلم بعد الخليفة المسترشد بالله ابنه الراشد، ولم تتوقف جهود الخلافة في استرجاع حقوقها المسلوبة وهذا ما توضح من دخول الخليفة العباسي الراشد في نزاع وصراع مع السلطان مسعود الذي طلب منه تسديد مبالغ مالية كبيرة، لكن الراشد رفض فما كان إلا أن خربوا دار الخلافة ودخلوا في صراع مع جند الخليفة وأخذوا المال قهراً من الدكاكين وهددوا أصحابها بالقتل. (القلقشندي، 1985م، ج2، 33).

لم يسكت الراشد عن الأمر وإنما جمع المعارضة ضد السلاجقة من عامة وقواد وعندما علم مسعود بذلك أرسل من يفض الجمع، لكن الخليفة أسقط الخطبة للسلطان مسعود ودعا إلى ابن أخيه داود محاولاً بذلك تأليب السلاجقة على بعضهم فازداد غضب مسعود وسارع بالقدوم إلى بغداد وحصارها.

استخدم مسعود الفقهاء والعلماء لرمي الخليفة بشرب الخمر واستطاع أن يأخذ موافقة الجميع على خلعه وذلك سنة 30هـ/ 1135م، وخطبوا للخليفة المقتفي والتي كانت مقتصرة على بعض أنحاء بغداد، بينما استمرت مناطق الموصل والجزيرة والشام تخطب للراشد الذي كان يتمتع بحماية زنكي وتأييده. (أمين، 1965م102، 108–109)؛ (ابن القلانسي، 1983م، ج1، 71)؛ (الكازروني، 1970، 225).

رفض الخليفة الراشد قرار مسعود بالخلع وبقي متمسكاً بخلافته الشرعية وبيعة الناس له، واستمر في تحشيد الناس لقتال مسعود إلا أنه قتل من قبل الباطنية سنة 532هـ/1137م. (الكازروني، 1970م، 226)، واستلم بعده الخليفة العباسي المقتفي وفي عهده كانت أحوال بغداد سيئة، حيث عم الغلاء والقحط في البلاد، وأهمل السلاطين أمور الري ونشط العيّارون فقاموا بنهب الأموال، وتعددت ثوراتهم، ولقد شغل جند مسعود دوراً سيئاً في حياة المجتمع البغدادي وصبوا على الناس أنواع العذاب، ولم يستطع الخليفة العباسي المقتفي أن

يدفع عنهم كل المشاكل والتجاوزات بسبب تجريده من قوة السلاح والرجال، إلا أنه استخدم سلاحاً آخر وهو الدبلوماسية والمكانة الدينية التي كان يتمتع بها الخليفة العباسي لدى الشعب العربي والإسلامي. (أمين، 1965م،110)؛ (اليافعي، 1997م، ج3، 218).

فقد أصدر الخليفة المقتفي بعد وفاة السلطان مسعود 547هـ/ 1152م، قراراً جريئاً وذلك بتقسيم جميع الضياع والممتلكات التي كان يمتلكها الموظفون في السلطنة السلجوقية وأتباعهم إلى إقطاعات ثم أمر وزيره عون الدين بن هبيرة بتوزيعها على مؤيدي وأنصار الخليفة. وعلا شأن الخليفة وقويت شوكته وساد الأمن والأمان ونشطت الحياة بكافة مناحيها بعد أن قلت حوادث العنف والسطو. (أمين، 1965م، 163)؛ (طقوش، 2016م، 246)؛ (كلاوسن، 2001م ،70).

بينما تفرقت السلاجقة بعد موت السلطان مسعود، وازادت حدة الصراعات، حيث عهد بالسلطنة إلى ابن أخيه ملكشاه بن محمود، وفعلاً تسلم ملكشاه مهمته سلطاناً عام 547هـ/ 1153م في همذان، لكن الأمور كانت تجري في الخفاء حيث ألقي القبض عليه من قبل أحد أمراء أبيه، وتم استبداله بأخيه محمد بن محمود حتى يتمكن من تسييره كيفما يشاء، لكن الأمور لم تسر وفق ما رسمه فبعد أن تسلم محمد السلطنة قتله مباشرة وتخلص منه وأصبح سلطاناً على العراق. (أمين، 1965م، 111–112)؛ (طقوش، 2016م، 246).

وهنا ازدادت قوة الخلافة العباسية بسبب نزاع السلاجقة أنفسهم، وخاصة أن السلطان سنجر وقع أسيراً بعد هزيمته أمام الغز الذين دخلوا نيسابور ونهبوها وأحرقوها سنة 551هـ/ 1156م. (ابن الأثير، 2003م، ج9، 408).

بدأ البيت السلجوقي يضعف وينقسم بجميع فئاته من سلاطين وأمراء وأتابكة وقادة عسكريين ولا سيما مع انشغال سنجر بمشاكله الخطيرة مع جبهة عريضة من المناوئين لحكمه والمتمثلة بالقراخطائيين والخوارزميين والغوريين، الذين أنهكوا جيشه بكثرة الحروب حتى وفاته سنة 552هـ/ 1157م، وبذلك سقطت دولة سلاجقة خراسان. (القلقشندي، 1985م، ج2، 38).

يتبين من خلال ما سلف أن السلاطين السلاجقة لم يتبعوا نظام معين لاعتلاء عرش السلطنة بل كان يعتليه أبرزهم شخصية وأكثرهم قوة وأعظمهم نفوذاً، وكان النزاع يثور بين أفراد البيت السلجوقي حول عرش السلطنة عقب وفاة كل سلطان من سلاطينهم حتى لو كان السلطان المتوفى قد عهد بولاية العهد لأكبر أبنائه سناً حيث كان الأمر ينتهي بتحكيم السيف.

وأدت حروب الوراثة بين الأمراء السلاجقة إلى ازدياد نفوذ الوزراء، واشتد التنافس على منصب الوزارة وتفشي الدس وانتشرت الرشوة للوصول إلى كرسي الوزارة، ومحاولة الخلفاء العباسيون استعادة هيبة الخلافة والتحرر من السيطرة السلجوقية فضلا عن استقلال حكام الأقاليم بالكامل في جميع شؤونهم وإعلان التمرد على السلطان، وبالتالي حدوث ضرر في المنظومة السياسية للدولة السلجوقية.

- **ثانياً: الآثار الاقتصادية الناجمة عن حرب الوراثة في العصر السلجوقي:**

ارتبطت الحياة الاقتصادية في العصر السلجوقي ارتباطاً كلياً بالواقع السياسي، حيث تعرض العالم الإسلامي قبل تواجد السلاجقة على الساحة السياسية لظروف اقتصادية متباينة، تارة تراه في قمة الازدهار وتارة أخرى تراه مضطرباً تبعاً للتغيرات السياسية.

ألقت النزاعات السياسية وحروب الوراثة الطويلة بظلها على المنظومة الاقتصادية، وقاس الناس الفقر والفاقة والجوع، على الرغم من محاولات بعض الوزراء القيام بمشروعات إصلاحية اقتصادية ورافقتها إصلاحات اجتماعية، إلا أنها نجحت في بعض الأحيان وأخفقت عندما عاد السلاطين إلى الحرب من أجل السلطنة.

أ– الزراعة: ولما كانت الزراعة هي العمود الفقري للاقتصاد فقد لقيت اهتماماً كبيراً في عهد السلاطين السلاجقة العظام، فحسنوها من خلال إيجاد وتوفير المعدات الزراعية وتشجيع المزارعين في كافة آراضي الدولة، واستمر هذا الوضع حتى وقعت حرب الوراثة الكبرى في عهد السلطان بركيارق 487هـ– 498هـ/ 1094– 1104م. (السماحي، 2005م، 107).

وعلى الرغم من تنوع الأراضي الزراعية في كل المناطق التي سيطر عليها السلاجقة وتنوع مزروعاتها ومروياتها، فقد كان هناك عدة مشاكل عانت منها الزراعة خلال هذه الحقبة، تركت أثراً سلبياً على تطور الاوضاع الاقتصادية في الدولة بشكل عام والزراعة بشكل خاص، ومن أبرزها حالة عدم الاستقرار التي شهدتها الدولة السلجوقية بسبب النزاعات العسكرية الداخلية للسلاجقة، لكن هذا لا يعني أن السلاطين لم يقوموا بأي إجراءات لتطوير الزراعة، بل كان هناك العديد من الإصلاحات في السنوات التي شهدت استقراراً كما حصل في عهد السلطان محمد بن ملكشاه عندما قام بشق الطرق، وحفر القنوات، وإقامة شبكات الري، ولكن لم يستطع السلطان بركيارق القيام بأي إصلاحات، بسبب ما اتسم به عهده من نزاعات وفتن شديدة. (ابن الأثير، 2003م، ج9، 33، 77–78، 168)؛ (ابن الجوزي، 1992م، ج17، 112).

مضافاً إلى ما سلف انشغال السلاجقة بتجهيز الجيوش من أجل التصدي للصليبيين، وكل هذا أدى إلى نقص كبير في الموارد فانعكس سلباً على البلاد حتى أصبحت على حد قول ابن الأثير (1963م): "أقل البلاد فاكهة" (78). وقد رافقت حروب الوراثة تطبيق لمفهوم نظام إقطاعي منذ عصر السلطان ملكشاه من أجل إرضاء القوات والجنود والذي عرف بالإقطاع العسكري، وأثر بشكل كبير على انخفاض إنتاجية الأراضي الزراعية، بعد أن قام أمراء المدن بتوزيع إقطاعات الأراضي على أمراء الجيوش والذين بدورهم وزعوها على الجنود وصغار الفلاحين الذين أهملوا العمل بالزراعة وبالتالي خربت معظم الأراضي ونقص الإنتاج.

لم تكن الزراعة تسير بوتيرة واحدة في كافة المناطق السلجوقية وانما كانت تختلف بين القوة والضعف تبعا لحروب الوراثة بالدرجة الأولى وما يرافقها من معارك طاحنة وحصارات طويلة وظروف مناخية قاسية، وعوامل اجتماعية بالدرجة الثانية.

فعند صراع السلطان بركيارق مع عمه تتش سنة 487هـ/ 1094م، دخل بركيارق أصفهان وكان أهلها قد قاسوا الأمرين وأشرفوا على الهلاك بسبب ارتفاع أسعار الحبوب والمنتوجات الزراعية، وقلت الأقوات، ولم تكن أصفهان وحدها بل وجدت مدناً كثيرةً عانت من الفقر والمجاعة بسبب هذه النزاعات. (البنداري، 1978م، 79)؛ (ابن القلانسي، 1983م، 27).

ووصلت أسعار كل من الحبوب والخضروات في سروج[27] (الحموي، 1977م، ج3، 216) إلى حد كبير من الارتفاع لم يتمكن الناس معه من شراء ما يأكلونه ونتيجة للقتال العنيف عدمت الأقوات في جرباذقان[28] (الحموي، 1977م، ج2، 118) والريّ بسبب نهب عساكر السلطان تتش لها، كما أن مرض السلطان بركيارق بمرض الجدري وعدم قدرة تتش على ضبط عساكره أثرت بشكل كبيراً على حالة الأسواق في الري سنة 488هـ/ 1095م، إذ خلت الأسواق من المارة ولزموا بيوتهم. (العزام، 2007م، مج31،297).

وأصبحت الأمور أكثر خطورة عندما نشبت سلسلة من الحروب بين الأخوين بركيارق ومحمد، والتي بلغت خمسة حروب انتهت بالصلح في سنة 497هـ/ 1104م، والتي ترافقت بارتفاع الأسعار وهلاك الناس في كل من العراق وبغداد وواسط حتى بلغ سعر كر الحنطة تسعون دينار، ولم يكن الوضع أفضل في باقي الولايات فقد تأزمت في كل من خراسان ونيسابور ومرو وغيرها. (ابن الأثير، 2003م، ج9، 70–71، 77–78)؛ (ابن كثير، 1988م، ج12، 167).

لقد استغل حرب الوراثة كل من التجار والأمراء السلاطين، فالتجار ضيقوا الخناق أكثر على الشعب كوسيلة ضغط على الخليفة المستظهر حتى يتحرك ويضع حداً لهذا النزاع الذي أكل الأخضر واليابس وحفظاً على حياة ما تبقى من الناس ومصالحهم،

[27] سروج: بلد من أرض الجزيرة وبمقربة من ملطية، وهي رستاق كبير القرى والكروم.

[28] جرباذقان: بلدة قريبة من همذان، بينها وبين الكرخ وأصفهان، كبيرة ومشهورة.

بالإضافة أن الأمراء استغلوا الوضع واتجهوا إلى مصادرة أملاك الناس وظلمهم، ورافق ذلك تكرار اعتداء الجنود والعساكر على الناس بالسلب والنهب.

وقد وصف كل من ابن الأثير (2003م) وابن الجوزي(1992م) الحالة البائسة: "رغم الغلاء في تلك الأصقاع حرب العساكر القرى وأكل الناس الميتة وأكل الناس بعضهم بعضاً حتى شوهد رجلاً يأكل كلباً مشوياً في الجامع، وإنسان يطاف به في الأسواق وفي عنقه يد صبي قد ذبحه وأكله". (ج9، 32)؛ (ج17، 66) وهذا أمر مبالغ فيه وغير حقيقي إلا أنه يظهر مدى تردي الأوضاع الاقتصادية في تلك الحقبة العصيبة ويوصف حالة إي نزاع داخلي أسري يحصل ضمن أي سلطنة.

وقد بيعت الحنطة العشر أرطال منها بدينار، واللحم بيع بربع دينار، وذلك في أصفهان عندما حاصر بركيارق أخية محمد بن ملكشاه، فتبع ذلك تحول الأسواق التجارية إلى أسواق خالية من الناس. (ابن الأثير، 2003، ج9، 49)؛ (ابن الجوزي، 1992، ج19، 79) .

وأصابت مشاريع الري الإهمال، إذ دمرت الشبكة المائية بين نهري دجلة والفرات والتي بنيت بشكل منظم، لكن إهمالها بسبب الحروب أدى إلى خرابها، وسببت الفيضانات المدمرة هلاك المحاصيل الزراعية، كما أهملت الأنهار والجداول ولم يقم أحد بتنظيفها أو كريها فأدى ذلك إلى تراكم كميات كبيرة من الأتربة والأوساخ مما أدى إلى خرابها وزوالها، ومن هذه المشاريع التي خربت مشروع النهروان[29] (لسترنج، 1985م، 47، 81–85) الإروائي (ابن الأثير، 2003، ج9، 371) – ذلك أن السلاطين السلاجقة لم يبذلوا جهوداً حقيقية أو محاولات جدية لتطوير مشاريع الري وإن قاموا ببعض الإصلاحات لم تكن تصل إلى المستوى الذي وصلت إليه في العصور العباسية الأولى، وهنا لا بد من طرح التساؤل حول الأسباب التي أدت إلى خراب النهروان وما هي نتائج هذا الخراب.

وكان من الواضح أن خرابه بسبب كثرة الحروب بين الأمراء السلاجقة وخاصة أنه كان مسرحاً لها بالإضافة إلى كونه أحد الطرق التي سلكتها العساكر السلجوقية أثناء احتلال بغداد إذ وصل طغرلبك إلى النهروان ومعه خمسون ألف مقاتل، فخربوا مشروع الري في النهروان والذي تسبب في خراب العديد من القرى والمدن، فضعف الإنتاج سواء في الزراعة أو الصناعة وتحولت مع الزمن إلى مواقع مقفرة وخالية من السكان، وغدت مع الوقت عبارة عن مواقع أثرية كشفت عنها المسوحات. (الحموي، 1977، ج5، 325–327).

وتعرض نهر عيسى[30] (الحموي، 1977م، ج7، 321–322) إلى الخراب بسبب فيضانات نهر الفرات وكسرت فوهته وقد سد عدة مرات، لكنه انفجر سنة 474هـ/ 1082م. كما أدى إهمال هذا النهر إلى حدوث كارثة اقتصادية حلت بالقرى الزراعية لأن خراب هذا النهر كان سببه عدم الاعتناء بالسدود فأدى إلى خرابها وإتلاف محاصيلها فضلا عن الأوبئة التي خلفتها تلك الفيضانات أما نهر الدجيل فقد أصابه الإهمال أيضاً، فملأته الترسبات، كما أدى عدم العناية به إلى تلف المحاصيل الزراعية نتيجة للعطش وكثرة الترسبات أدت إلى انقطاع ماء الفرات عنها. (ابن الأثير، 1987م، ج8، 422، 426).

كما ساهمت العوامل المناخية في زيادة الكوارث على الزراعة ومنها الفيضانات التي استمرت لسنوات طويلة، وهذا يعني أن العوامل المناخية والبشرية من الإهمال للسدود والمشاريع ونهب الأراضي، والتخريب ساهمت في الانهيار الزراعي، وسببت الفيضانات فشل الزراعة وخاصة نتيجة استمرارها لسنوات طويلة، وبالرغم من ذلك تعرض الوضع للإهمال واللامبالاة، وعدم الاهتمام بالسدود، والسبب في ذلك يعود إلى أعمال التخريب والنهب للأراضي وإهمال المشاريع.

---

[29] النهروان: نهر طوله مائتا ميل يقع في شرق دجلة، يبدأ من أسفل تكريت وينتهي في دجلة على نحو من خمسين ميلاً من شمالي واسط، وكان يسقي ما في الجانب الأبعد من دجلة، أي جهة إيران.

[30] نهر عيسى: كورة واسعة وقرى كثيرة في غرب بغداد، ومآخذه من الفرات، وتتفرع منه نهار تخترق مدينة بغداد.

ولكن ما إن تولى السلطان محمد سدة السلطة حتى بدأ بإجراءات إصلاحية، منها تعمير السواقي وحفر الأنهار وزراعة أراضٍ، فانعكس ذلك على الأسعار التي رخصت في كل من الأسواق والمحال التجارية، ولأنه أراد نشر العدل بين الناس فقد أمر بإلغاء كافة الضرائب سنة 501هـ/ 1108م. (سبط ابن الجوزي، 2013م، ج20، 27)؛ (النويري، 2004م، ج26، 211).

بناءً على ما سلف يتبين أن الصراع السلجوقي على السلطنة وضع الناس في حالة يرثى لها، من غلاء وفقر ومجاعة وموت بالجملة، إلى جانب تدهور مساحات واسعة من الأراضي الخصبة التي تحولت إلى أراضي قاحلة ومهجورة وخاصة بعد تطبيق النظام الإقطاعي العسكري الذي حرم الأرض من اليد العاملة الماهرة، بعد أن نقلت إلى أيدي ملاك لا يفقهون شئياً بالزراعة، وهمهم الوحيد هو كسب الأموال الطائلة بمختلف الطرق والسبل لدعم حروبهم، فأثقلوا كاهل الفلاحين بالضرائب الباهظة، كما أن نزاعات الأمراء فيما بينهم قد أدت إلى حدوث هجرات بالجملة، فخلت الكثير من القرى والبلدات من سكانها، وبالتالي بقيت الأراضي الزراعية دون زراعة أو فلاحة في العراق وغيرها، ووصف ابن الأثير(2003م) حال القرى والأراضي الزراعية في ظل التسلط السلجوقي بقوله: "إن الحروب التي نشبت بينهم سببت الفساد وصارت الأموال منهوبة والدماء مسفوكة والبلاد مخربة والقرى محرقة". (ج9، 70–71).

انعكاسات حرب الوراثة على التجارة:

كانت المدن والقرى الواقعة تحت نفوذ الدولة السلجوقية تشتهر بالكثير من المراكز التجارية، حيث كان أهل القرى يأتون إليها في أيام مخصصة من أجل البيع والشراء..

لكن هذه الأسواق والمراكز التجارية مثلها مثل الأراضي الزراعية لم تسلم من حروب الوراثة، فتعرضت لفترات عصيبة أثناء الصرع الشرس بين بركيارق وأخيه محمد، فأغلقت أبوابها بل تم خلعها بسبب احتدام الصراع، ما لبثت أن بدأت بالتعافي سنة 501هـ/ 1108م إثر صدور قانون من قبل السلطان محمد بن ملكشاه بإلغاء الضرائب.

وبالمجمل، تأثرت التجارة بتيارات السياسة صعوداً وهبوطاً، فإذا مالت الأوضاع السياسية للاستقرار ونشطت التجارة وأمّت القوافل التجارية الطرق بأمان وسلام وعمت الأسواق بالبضائع والعكس صحيح أيضاً وهذا ما يتبين أنها تعرضت للركود بظهور العيارين وما قاموا فيه من أعمال نهب وسلب وقطع للطرق وبخاصة بين الموصل وبغداد وبالعكس (ابن الأثير، 2003، ج9، 29–30)؛ (الجميلي، 1980م، 144). ومن الطرق التي تأثرت بالحرب الطريق الواصل بين الري ومدينة قم[31](1) (الحموي، 1977، ج4، 397).

ليصل في النهاية إلى مدينة أصفهان، فقد تأثرت بالمناوشات العسكرية بين تركان خاتون وابنها محمود من جهة والنظامية أنصار السلطان بركيارق من جهة ثانية (سبط ابن الجوزي، 2013م، ج9، 450).

انعكاسات حرب الوراثة على الصناعة والموارد المالية:

شهدت الصناعة ازدهارا في عهد السلطان ملكشاه ووزيره الطوسي بسبب اهتمامهم الكبير فيها، على أنها الداعم الأساسي للخزينة السلجوقية، فاهتموا بصناعة الزجاج والتحف والصناعات الزراعية وتطورت الصناعة بشكل كبير في عهد السلاطين العظام، وكان هذا التطور ملحوظاً في العراق وبلاد فارس ولا سيما المنسوجات القطنية والصوفية والحريرية والأقمشة والثياب العتابية التي نسبت لأحد الأحياء في مدينة بغداد وهي عتاب. (الدوري، 2009م، 20). لكن اختلف الوضع بعد موته بسبب حرب الوراثة، حيث كان

[31] قُمُّ: مدينة تقع بين أصفهان وساوة، ليس لها سور، خصبة وبه آبار، ليس في الأرض مثلها عذبة وباردة، وهي مدينة كبيرة حسنة طيبة أهلها كلهم من الشيعة الإمامية.

طبيعيا أن تتأثر الصناعة وتتوقف عجلة العمل عن الدوران، ولكن بعد انتصار بركيارق على عمه تتش توجه إلى بغداد فشارك الصناع والحرفيين بتزيين الأسواق والمحال التجارية، بمناسبة قدومه وهذا ما أدى إلى خسران كافة أموالهم فلم يستطيعوا أن يمولوها فيما بعد مما أدى إلى إفلاسهم، وفي سنة 495هـ/ 1101م أشار ابن الأثير (2003م): "إلى خلو أسواق واسط من الناس عند دخول السلطان بركيارق إليها". (ج9، 47).

يمكن القول بأن حرب الوراثة أثرت سلبا على بعض الصناعات وأدت إلى كسادها، إلا أنها تركت ميزة وحيدة هي اهتمام السلاطين بصناعة المعادن بسبب حاجتهم لمثل هذه الصناعة، فازدهرت صناعة السيوف والتروس والدروع، وقد جاء لدى ابن الأثير (2003م): "أن رجالة بركيارق احتاجوا إلى تراس، فوصل إليه يوم المصاف بكرة من اثنا عشرة حملاً من السلاح من همدان منها ثمانية أحمال أتراس ففرقت بينهم". (ج9، 31).

وبالنسبة للموارد المالية فقد اختلف مقدارها تبعا للوضع السياسي والنزاع الحربي بين السلاجقة أنفسهم، فتأرجحت قيمتها، وأكثر ما تأثر بالأمر هو الخراج، والذي كان مفروض على المحاصيل الزراعية في مناطق جنزة وخراسان وأذربيجان وديار بكر وديار مضر وديار ربيعة حيث دفعت مبالغ مالية تراوحت بين مائة ألف وثلاثمائة ألف دينار. وأن دل هذا فانه يدل على أن هذه لأراضي كان حجمها كبيراً، غير أن النزاع العسكري بين السلاطين قد استهلك معظم الأموال المجبيّة، فلم يستخدموا في إعمار الدولة وإصلاحها وبالأخص الصراع العظيم ذو الخمس أعوام بين بركيارق ومحمد. (النويري، 2004م، ج26، 201).

بينما كانت الضرائب تستوفى من التجار خاصة في حالات الاستقرار والحرب على حد سواء ففي سنة 498هـ/ 1104م بعدها تسلم السلطان محمد بن ملكشاه مقاليد الحكم دون منازع ومنها الضرائب المالية تفرض على واردات السوق في عمليات البيع والشراء. (البنداري، 1980م، 90–91).

وفي نهاية الحديث عن أثر هذه الحرب يمكن القول ان المتصارعين قد استخدموا سياسة الأرض المحروقة، ولكن ليس بالمعنى الحرفي للمصطلح.

واتبعوا أسلوباً آخر لتغطية نفقات الحرب وهي مصادرة الأموال للعامة والوزراء، لا سيما بعد خروج السلطان محمد سنة 492هـ/ 1099م، عن طاعة أخيه. فقد كانوا بحاجة ماسة للأموال من أجل الإنفاق على التنقلات الحربية أثناء المعارك الطاحنة، وما فاض منها يوضع في الخزينة، ليس للإنفاق على المشاريع الإنمائية وإنما من أجل إنفاقها على الأمور الحربية. وفي عام 493هـ/ 1100م وصل السلطان بركيارق إلى خوزستان بعد أن تخلي عنه الكثير من الأنصار والاتباع بسبب قلة الأموال التي بين يديه، وانضموا إلى السلطان محمد بفضل خطط وتدبير وزيره مؤيد الملك، ومن أجل ذلك كله غادرها إلى واسط (ابن الأثير، 2003م، ج9، 25)؛ (سبط ابن الجوزي، 2013م، ج19، 502). وصادر أهل الأهواز[32]. (الحموي، 1977م، ج1، 284–285).

وفي همذان اتجه جنود السلطان بركيارق إلى سلب ومصادرة الناس إثر الخسارة التي تعرضوا لها في أولى معاركهم مع أخيه السلطان سنجر، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل إنهم قاموا بمصادرة الرعية في ترمذ سنة 493هـ/ 1101م، ولم يقتصر هذا

[32] الأهْوَاز: وهي جمع هوز، وهو اسم عربي سمّي به في الإسلام، وكان اسمها في أيام الفرس خوزستان، والأهواز اسم لناحية تمتد بين البصرة وفارس وتتضمن سبع كور، لكل كورة منها اسم، ويجمعهن الأهواز، وأهم كورها سوق الأهواز ومكرم وجند نيسابور، وأهل الأهواز معروفون بالبخل والحمق وكان خراجها ثلاثون ألف ألف درهم.

الأمر على جنوده وإنما فعل ذات الشيء السلطان محمد وجنوده، فنجدهم في سنة 494هـ/ 1102م، وبعد خسارتهم في المعركة الثالثة مع السلطان بركيارق وصادروا ممتلكات أهالي جرجان وخراسان ونيسابور. (النويري، 2004م، ج26، 199).

وبالتالي كانت قيمة الصادرات وحجمها في زيادة مستمرة طالما استمرت الحروب بين السلطانيين فكلاهما كان يعتمد على جباية الأموال من الناس وجمعها بأي وسيلة، بغض النظر عن أوضاع رعيتهم ضاربين بعرض الحائط كل الأعراف والتقاليد المتبعة في حكم الرعية.

- **الخاتمة:**

بعد دراسة الآثار السياسية والاقتصادية لحرب الوراثة في العصر السلجوقي توصل البحث إلى عدة نتائج:

- رغم المساحة الكبيرة التي سيطر عليها السلاجقة، وما كان لهم من جيش كبير، لم يستطيعوا أن يوجدوا نظاماً سياسياً خاصا بهم، يمكنهم من الحفاظ على عرشهم أولاً أو ضبط حدودهم، بل على العكس دخلوا في صراع دامي فيما بينهم، أفشلهم سياسياً فلم يستطيعوا أن يحققوا أي نوعاً من الاستقرار السياسي بسبب كثرة الحروب والمعارك التي خاضوها، والتي زادت شدتها بسبب ما حاكه الوزراء والأمراء من مؤامرات جعلت منها حروب مستعرة لفترات طويلة، بغية الحصول على المنفعة.
- لقد أدت حروب الوراثة إلى ظهور ما يعرف بنظام الإقطاع العسكري الذي أثر بشكل كبير على الزراعة، فخربت الأراضي، والمزروعات وارتفعت أسعار المواد الغذائية بعد قلة الفواكه والخضروات وغيرها، هذا بالإضافة الى المعارك التي دارت عليها والتي خربت الأراضي المزروعة بسبب هجران أهلها لها خوفاً من الموت.
- لم تكن الزراعة هي المتأثر الوحيد بهذه الحرب بل تدهورت الصناعة ووصلت إلى درجة من الضعف، ولم يسلم من التدهور من بينها سوى الصناعات المعدنية كصناعة الدروع والسيوف وغيرها من الأدوات الخاصة بالحروب، وهذا عائد إلى اهتمام السلاطين بها لحاجتهم إليها.
- أما التجارة هي الأخرى ضعفت بسبب الحروب التي كانت تقام بين السلاطين وأمراء البيت السلجوقي ففقدت الكثير من الطرق التجارية الأمان وساد الخوف والسرقة والنهب، وهذا ما دفع الكثير من التجار إلى ترك التجارة وملازمة بيوتهم.

التمويل:

هذا البحث ممول من جامعة دمشق وفق رقم التمويل (501100020595).

المصادر والمراجع:

1. ابن الأثير، علي بن محمد ت 630هـ/1232م. (1963م). التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية. دار الكتب الحديثة: 291.
2. ابن الأثير، علي بن محمد ت 630هـ/1232م. (1987م). الكامل في التاريخ. ط: 1، دار الكتب العلمية: 532.
3. الأزرق الفارقي، أحمد بن يوسف ت حوالي 577هـ/ 1181م. (1595م). تاريخ الفارقي. وزارة الثقافة والإرشاد القومي: 355.
4. إقبال، عباس. (1984م). الوزارة في عهد السلاجقة. ترجمة أحمد كمال الدين حلمي. مطبعة جامعة الكويت: 526.
5. أمين، حسين. (1965م). تاريخ العراق في العصر السلجوقي. منشورات المكتبة الأهلية: 487.
6. براون، إدوارد جرانفيل. (2004م). تاريخ الأدب في إيران من الفردوس إلى السعد. ترجمة ابراهيم أمين الشواربي. مكتبة الثقافة العربية: 747.
7. البنداري، الفتح بن علي بن محمد الأصفهاني ت 643هـ/ 1245م. (1980م). زبدة النصرة في تاريخ دولة آل سلجوق. ط: 3، دار الآفاق الجديدة: 287.
8. ابن تغري بردي، جمال الدين محاسن يوسف ت 874هـ/ 1469م. (1992م). النجوم الزاهري في ملوك مصر والقاهرة. دار الكتب العلمية: 382.
9. الجدبة، رائد رحاب حرب. (2016م). موقف الدبلوماسية العباسية من النزاعات الإسلامية (350–656هـ/1136–1258م). رسالة ماجستير، كلية الآداب، قسم التاريخ، جامعة الإسلامية غزة: 215.
10. الجميلي، رشيد عبد الله. (1980م). إمارة الموصل في عهد السيطرة السلجوقية. مطبوعات جامعة بغداد: 346.
11. الجوزي، عبد الرحمن بن علي ت 597هـ/ 1200م. (1992م). المنتظم في تاريخ الملوك والأمم. دار الكتب العلمية: 507.
12. الجومرد، جزيل عبد الجبار. (1988م). الدولة العربية الإسلامية في العصر العباسي الثاني، منشورات الجامعة العراقية: 400.
13. الحسيني، علي بن ناصر ت 622هـ/1029م. (1984م). أخبار الدولة السلجوقية. ط: 1، دار الآفاق الجديدة: 288.
14. الحموي، ياقوت بن عبدالله ت 626هـ /1228م. (1995م). معجم البلدان. دار صادر: 549.
15. خواندمير، غياث الدين بن همام الدين ت 942هـ/ 1535م. (1980م). دستور الوزراء. الهيئة المصرية العامة للكتاب: 489.
16. دهمان، محمد أحمد. (1990م). معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي. دار الفكر: 158.
17. الدوري، عبد العزيز. (2009م). أوراق في التاريخ والحضارة في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت: 366.
18. الذهبي، محمد بن أحمد ت 748هـ/ 1347م. (2003م). تاريخ الأعلام. ط: 1، دار الغرب الإسلامي: 912.
19. الذهبي، محمد بن أحمد ت 748هـ/ 1347م. (2006م). سير أعلام النبلاء. دار الحديث: 620.
20. الراوندي، محمد بن علي بن سليمان ت في القرن السابع الهجري. (1960م). راحة الصدور وآية السرور. المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب: 680.
21. رستم، سعد. (2007م). الفرق والمذاهب الإسلامية. ط: 5. دار الأوائل: 400.
22. السماحي، شيرين. (2005م). مدينة قزوين خلال العصر السلجوقي (434–590هـ/ 1042–1104م)، رسالة الماجستير، كلية الآداب، قسم التاريخ، جامعة اليرموك.

23. الصابئ، هلال بن المحسن ت 448هـ/ 1056م. (1998م). تاريخ هلال بن المحسن. جامعة صنعاء: 363.
24. الصلابي، علي محمد(2006م). دولة السلاجقة وبروز مشروع إسلامي لمقاومة التغلغل الباطني والغزو الصليبي. مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة: 623.
25. طقوش، سهيل. (2016م). تاريخ السلاجقة في خرسان وإيران والعراق. دار النفائس: 272.
26. العزام، صبحي. (2007م). أسعار الحبوب والمواد الغذائية في العصر السلجوقي. مجلة جامعة البعث: مج31.
27. العسيري، أحمد محمود. (1966م). موجز التاريخ الإسلامي. مكتبة الملك فهد الوطنية: 540.
28. عطا، زبيدة. (د.ت). الترك في العصور الوسطى. دار الفكر العربي: 233.
29. العمراني، محمد بن علي بن محمد ت 580هـ/ 1184م. (1999م). الأنباء في تاريخ الخلفاء. ط: 1، دار الآفاق العربية: 366.
30. غرس النعمة، محمد بن هلال ت 480هـ/ 1087م. (1987م). عيون التواريخ. جامعة دمشق: 435.
31. القزاز، محمد صالح. (1971م). الحياة السياسية في العراق في العصر العباسي الأخير. طبعة النجف الأشرف: 477.
32. القلانسي، حمزة بن أسد ت 555هـ /1160م. (1983م). تاريخ دمشق. دار حسان 576.
33. القلقشندي، أحمد بن علي ت 821هـ/ 1418م. (1985م). مآثر الأناقة في معالم الخلافة. الكويت: 445.
34. كارلا آل كلاوسن. (2001م). دراسة في الإدارة المدينة في العصر السلجوقي. الوزارة أنموذجا، بيت الحكمة: 233.
35. الكازورني، علي بن محمد البغدادي، ت 697هـ/ م. (1970م). مختصر التاريخ من أول الزمان إلى منهى دولة بني العباس. مطبعة الحكومة: 435.
36. ابن كثير، إسماعيل بن كثير الدمشقي ت 774هـ/ 1372م. (1988م). البداية والنهاية. دار إحياء التراث: 742.
37. لسترنج، كي. (1985). بلدان الخلافة الشرقية. ترجمة بشير فرنسيس، كوركيس عواد. ط: 2، مؤسسة الرسالة: 586.
38. ناصر خسرو، علوي القبادياني ت 481هـ/ 1088م. (م1993). سفرنامة. ترجمة يحيى الخشاب. الهيئة المصرية للكتاب: 183.
39. أبو النصر، عبد العظيم. (2003م). السلاجقة تاريخهم السياسي والعسكري. عين الدراسات والبحوث: 448.
40. النويري، أحمد بن عبد الوهاب ت 733هـ/ 1332م. (2004م). نهاية الأرب في فنون الأدب. دار الكتب العلمية: 240.
41. الوردي، عمر بن مظفر بن عمر ت 749هـ/ 1348م. (1996م). تتمة المختصر في أخبار البشر. ط: 1، دار الكتب العلمية: 376.
42. اليافعي، عبدالله بن أسعد ت 768هـ/ 1367م. (1997م). مرآة الجنان وعبرة اليقظان. ط: 1، دار الكتب العلمية: 382.